سُورةُ النَّبَأِ
من آية (1) إلى آية (16)
الجزء الأول

دراسة الجزء الثلاثون (جزء عمّ)

(السور: من سورة النبأ إلى سورة الناس)

■هدف الجزء: تعميق الإيمان بالآخرة، وأنها حق، والبعث حق، ولقاء الله حق، والحساب والجزاء حق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد ρحق.

■جزء عمّ وهو الجزء الثلاثون والأخير في القرآن الكريم يحتوي على 37 سورة هي من السور القصيرة.

■ أغلب سور الجزء هي سور مكية، نزلت في بداية البعثة، وأغلب مواضيعها مواضيع عقيدة، تركز على الإيمان والتحذير من الكفر، وتذكر بيوم البعث.

■تركيز سور جزء عم أيضاً، على تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم.

وأما بالنسبة لأهمية جزء عم، فإنها تأتي من مميزاته أيضاً، ومن المواضيع التي تتناولها سوره، ومن هذه المواضيع المهمة:

العقيدة

■يعمل جزء عم على تصحيح التصورات العقائدية ويقدم الأدلة والبراهين على الغيب، لتثبيت الإيمان بالغيب عند المسلمين.

⇦وذلك من خلال الآيات التي:

■تتحدث عن يوم القيامة ووصف الجنة والنار.

■الملائكة وعملهم، والأنبياء والمهام التي أوكلها الله لهم.

■العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى الله عز وجل.

■الحديث عن الدلائل الكونية التي تدل على وجود الله عز وجل وقدرته.

الأخلاق

⇦يحتوي جزء عم على آيات تقوم سلوك الإنسان المسلم، وتهتم بأعمال القلوب أيضاً، ومن ذلك:

■تزكية النفس ومجاهدتها.

■التفكر في خلق الله والتدبر في آياتها.

■التأكيد على أهمية أعمال الجوارح منها: الأمانة، الصدق، حفظ اللسان، الأعمال الصالحة.

■كذلك ورد في هذا الجزء حديث عن قصص أقوام سابقة مثل قوم عاد وقوم ثمود، وأصحاب الأخدود أيضاً.

✉وفيما يلي نتعرض لبعض المعاني في بعض السور التي وردت في هذا الجزء.

■ونلاحظ أن هذا الجزء احتوى سورة العلق وسورة النصر أما ❶الأولى فهي إيذان ببدء الرسالة والدعوة (اقرأ باسم ربك الذي خلق) و❷الثانية أي سورة النصر هي سورة نهاية الرسالة ونعي الرسول ρ

وهكذا هي سور الجزء الثلاثين من القرآن الكريم كأنما كل سورة فيه تلخّص هدفاً من الأهداف التي وردت في الأجزاء التسع وعشرون السابقة، ⇦ مع تذكرة بالآخرة وبلقاء الله تعالى ☜ حتى لا ينسى أحدنا أن تطبيق هذا المنهج فريضة على المسلمين ☜ وأنهم سوف يحاسبون على هذا يوم القيامة، يوم يقف الناس بين يدي الله تعالى للحساب على ما قدموه لهذا الدين ونصرته، وما عملوا من أعمال في حياتهم الدنيا، وما طبقوه من تعاليم هذا الدين وتشريعه وأخلاقياته في حياتهم وفي تعاملهم مع غيرهم من الناس.

أسماءُ السُّورةِ:

✉سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّبَأ)

وَجهُ التَّسميةِ: سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ النَّبَأِ في قَولِه تعالى: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (497/1). قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ هذه السُّورةُ في أكثَرِ المصاحِفِ، وكُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتُب السُّنَّةِ «سُورةَ النَّبَأ»؛ لِوُقوعِ كلمةِ النَّبَإِ في أوَّلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (5/30). وتُسمَّى أيضًا سورةَ عَمَّ وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ؛ تسميةً لها بأوَّلِ جملةٍ فيها. وتُسمَّى «سورةَ التَّساؤُلِ»؛ لوُقوعِ يَتَسَاءَلُونَ في أوَّلِها. وتُسمَّى «سورةَ المعْصِراتِ»؛ لقولِه تعالى فيها: وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا [النبأ: 14]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (196/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (5/30).

بيانُ المكّيِّ والمدَنيّ:

سورةُ النَّبَأ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.

مَقاصِدُ السُّورةِ:

✉مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إثباتُ البَعثِ، وتهويلُه، وإنذارُ مُنكِريه.

موضوعاتُ السورةِ:

✉مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

1- سؤالُ المشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وما اشتَمَل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعثِ إلى غيرِ ذلك، وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ إذا ما استمَرُّوا في طُغيانِهم وإنكارِهم لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

2- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى عظيمِ قُدرتِه، وإمكانِ حُصولِ البَعثِ.

3- ذِكرُ أحداثِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ أهوالِه.

4- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه للكافِرينَ مِن عذابٍ في جهنَّمَ.

5- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ في الجنَّةِ.

6- تقريرُ أنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، وأنَّه يَنبغي تقديمُ العَمَلِ الصَّالحِ مِن قَبلِ أن يأتيَ هذا اليومُ.

7- الإنذارُ بعذابٍ قَريبٍ، وعَرْضُ الأعمالِ على العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها، وتمنِّي الكافِرِ في ذلك اليومِ أنْ لو كان تُرابًا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(عَمَّ يَتَسَاءلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)

المعنى الإجمالي للآيات: افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأُسلوبِ الاستِفهامِ؛ لِتَشويقِ السَّامِعِ إلى المستفهَمِ عنه، ولتَهويلِ أَمْرِه، وتَعظيمِ شَأنِه، قائِلًا سُبحانَه: عن أيِّ شَيءٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ؟ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو القُرآنُ وما اشتَمل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعْثِ وغيرِ ذلك، الَّذي هم فيه مُختَلِفونَ، ثمَّ قال الله تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا: كلَّا سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، وعاقِبةَ تَكذيبِهم، ثُمَّ كَلَّا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ ووُقوعَ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به. الدرر السنية

أخبرت الآيات عن موضوع القيامة والبعث والجزاء وأقامت الدلائل على قدرة الله تعالى في الكون وأن القادر على خلق هذا الكون بما فيه قادر على إعادة خلق الإنسان بعد موته. وذكرت البعث وجهنم التي أعدت للكافرين وما فيها من أنواع العذاب المهين للكفار والمشركين وفي مقابل هذا جاء وصف ما أعده الله تعالى للمتقين وهذا أسلوب الترغيب والترهيب الذي كثيراً ما نجده في الآيات والسور. ثم ختمت السورة بالحديث عن أهوال يوم القيامة.

والسورة تأكيد وإتمام لسورة المرسلات، فكلاهما في إثبات القيامة والبعث من جهة، لكن المرسلات ركزت غالباً على إثبات الوقوع، وعم ركزت غالباً على إثبات الجزاء ولهذا قال في المرسلات {هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} في إثبات القدرة على الجمع، وفي عم قال {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا .... لِلطَّاغِينَ مَآبًا} في إثبات موعد الجزاء. وقال في المرسلات {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} إثباتاً لوقوعه، وقال في عم {إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} إثباتاً للعذاب فيه. (د. الربيعة)

1-5: تساؤل المشركين عن النبأ العظيم.

6-16 لفت النظر إلى الآيات الكونية– براهين وشواهد على قدرة الله عز وجل في الخلق دليلاً على صحة وقوع البعث.

20-30 من أحداث يوم القيامة ومآل المكذّبين بالبعث.

31-40 جزاء المتقين

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿1﴾

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) أي: عن أيِّ شَيءٍ عَظيمٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ. موسوعة التفسير

■ (استفهام استنكاري عن ما) أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: لَمَّا بُعِث رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأخبَرَهم بتوحيدِ الله، والبعثِ بعدَ الموتِ، وتلا عليهم القرآنَ؛ جعَلوا يَتساءَلونَ بيْنَهم، فيَقولونَ: ماذا جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ وما الَّذي أتى به؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ).

قال الطبري: وذلك أن قريشا جعلت -فيما ذكر عنها- تختصم وتتجادل في الذي دعاهم إليه رسول الله ρ، من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى، والإيمان بالبعث.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿2﴾

(عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أي: يَتساءلونَ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن التَّوحيدِ والبعثِ وغيرِ ذلك. موسوعة التفسير

وقد اختلف في المراد بالنبأ هنا: قيل: هو البعث بعد الموت، وهذا قول الأكثر. وقيل: هو القرآن، وقيل: بعثة محمد ρ وإرساله إليهم، والراجح الأول، ورجحه ابن كثير، وقال: لأنه سبحانه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث.

قال ابنُ عاشور: (يَشملُ كُلَّ نَبأٍ عَظيمٍ أنبَأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به، وأوَّلُ ذلك إنباؤُه بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وما تضَمَّنَه القُرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ، ومِن إثباتِ بَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ).

وقال علماء التفسير: سميّت النبأ لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور وتدور آياتها حول إثبات عقيدة البعث التي أنكرها المشركون.

كما قال تعالى: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [ص: 67-68].

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ ﴿3﴾

(الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أي: الَّذي اختَلَف فيه أهلُ مَكَّةَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

■ الذي اختلفوا فيه البعث، ما بين شاكٍ في قوعه، ومكذب منكر لحصوله.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿4﴾

(كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ بالقُرآنِ والمنكِرونَ للبَعْثِ وغيرِه ممَّا جاء به، وهم سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، عندَ مَوتِهم ويومَ القيامةِ، وسيَعلَمونَ حَقًّا عاقِبةَ تَكذيبِهم. موسوعة التفسير

كَلَّا:(للردع والزجر). سَيَعْلَمُونَ:(تهديد ووعيد). ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. تأكيد للردع والزجر والتهديد للمكذبين للرسول ρ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، كما قال تعالى: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [غافر: 70 – 72].

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿5﴾

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) أي: ثمَّ ليس الأمرُ كما يَزْعُمونَ، فهم حَتْمًا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ وما اشتمَل عليه، كوُقوعِ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به، وسيَعْلَمونَ عاقِبةَ ذلك. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: ولكن العلم الحقيقي بالمعاينة لم يأت بعد لوجود السين وهي للمستقبل.

قال ابن عاشور: فَهُمَا عِلْمانِ يَحصُلانِ لهم: عِلمٌ بحقِّ وُقوعِ البعثِ، وعِلمٌ في العِقابِ عليه.

قال تعالى: (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً) [الجن:24].

قال السعدي: أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون، (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)، ويقال لهم: (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) [الطور13-14].

ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون بعث الله إياهم أحياء بعد مماتهم، وتوعدهم جل ثناؤه على هذا القول منهم، فقال: (سيعلمون) يقول: سيعلم هؤلاء الكفار المنكرون وعيد الله أعداءه، ما الله فاعل بهم يوم القيامة، ثم أكد الوعيد بتكرير آخر، فقال: ما الأمر كما يزعمون من أن الله غير محييهم بعد مماتهم، ولا معاقبهم على كفرهم به، سيعلمون أن القول غير ما قالوا إذا لقوا الله، وأفضوا إلى ما قدموا من سيئ أعمالهم.

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) [الصافات:20-24]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

المعنى الإجمالي للآيات: يقولُ تعالى مبيِّنًا مَظاهِرَ قُدرتِه: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ مُذَلَّلةً للنَّاسِ مُمَهَّدةً يَستَقِرُّونَ عليها ويَنتَفِعونَ بها؟ وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ؛ حتَّى لا تَضطَرِبَ بأهْلِها، وخَلَقْناكم ذُكُورًا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، وجَعَلْنا نَومَكم راحةً لكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم بالنَّهارِ، وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يُغَطِّيكم بظَلامِه، وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا لسَعْيِ النَّاسِ في مَصالِحِهم وأرْزاقِهم، وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ، وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ، وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ الغَزيرَ؛ لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ والنَّباتاتِ، وبَساتينَ أشجارُها كثيرةٌ مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ.

■ مُناسَبةُ الآيات لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا حكى اللهُ تعالى عنهم إنكارَ البَعثِ والحَشرِ، وأراد إقامةَ الدَّلالةِ على صِحَّةِ الحَشرِ؛ قدَّم لذلك مقدِّمةً في بيانِ كَونِه تعالى قادِرًا على جميعِ الممكِناتِ، عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ وذلك لأنَّه مهما ثَبَت هذان الأصلانِ ثَبَت القَولُ بصِحَّةِ البَعثِ، وإنَّما أثبَت هذَينِ الأصلينِ بأنْ عدَّد أنواعًا مِن مخلوقاتِه الواقعةِ على وَجهِ الإحكامِ والإتقانِ؛ فإنَّ تلك الأشياءَ مِن جِهةِ حُدوثِها تدُلُّ على القُدرةِ، ومِن جهةِ إحكامِها وإتقانِها تدُلُّ على العِلمِ، ومتى ثَبَت هذان الأصلانِ، وثبت أنَّ الأجسامَ مُتساويةٌ في قَبولِ الصِّفاتِ والأعراضِ؛ ثبَتَ -لا مَحالةَ- كَونُه تعالى قادِرًا على تخريبِ الدُّنيا بسَماواتِها وكواكِبِها وأرضِها، وعلى إيجادِ عالَمِ الآخرةِ؛ فهذا هو الإشارةُ إلى كيفيَّةِ النَّظمِ.

قال ابن حيان: لَمَّا كان أعظَمُ نَبأٍ جاءهُم به القرآنُ إبطالَ إلهيَّةِ أصنامِهم، وإثباتَ إعادةِ خلْقِ أجسامِهم -وهما الأصلانِ اللَّذانِ أثارَا تَكذيبَهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ، وتَأَلُّبَهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَرويجَهم تَكذيبَه؛ جاء هذا الاستِئنافُ بَيانًا لإجمالِ قولِه: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ [النبأ: 2-3]. - قوله: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، بدَأَ بما هم دائمًا يُباشِرونَه.

قال ابن عاشور: جمَعَ اللهُ لهم في هذه الآياتِ الاستِدلالَ على الوحدانيَّةِ بالانفرادِ بالخَلْقِ، وعلى إمكانِ إعادةِ الأجسادِ للبَعثِ بعدَ البِلى بأنَّها لا تَبلُغُ مَبلَغَ إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، ولكونِ الجُملةِ في مَوقعِ الدَّليلِ لم تُعطَفْ على ما قبْلَها.

✉ مما يقوي أن المراد بذلك البعث والقيامة، ذكر دلائل البعث، دلائل القدرة، ثم ذكر بعد ذلك القيامة ثم بين تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت به الرسل فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ ﴿6﴾

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) أي: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ فِراشًا للنَّاسِ، مُذَلَّلةً لهم، يَستَقِرُّونَ عليها، ويَنتَفِعونَ بها.

موسوعة التفسير

أَلَمْ نَجْعَلِ: استفهام تقريري.

(المهد يحمل الطفل والأرض تحمل الناس).

قال السعدي: أي: ممهدة مهيأة لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [البقرة: 22].

وقال سُبحانَه: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا [طه: 53].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

قال ابن عاشور: تشبيهٌ للأرضِ بالمِهادِ؛ إذ جُعِل سطحُها ميسَّرًا للجلوسِ عليها والاضطجاعِ، وبالأَحْرى المشيُ، وذلك دليلٌ على إبداعِ الخلقِ، والتَّيسيرِ على النَّاسِ.

قال ابن حيان: قرَّرَهم تعالى على النَّظَرِ في آياتِه الباهِرةِ، وغرائِبِ مخلوقاتِه التي ابتَدَعها من العَدَمِ الصِّرْفِ، وأنَّ النَّظَرَ في ذلك يُفْضي إلى الإيمانِ بما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ والجزاءِ.

قال ابن عاشور: استِدلالٌ يَتضمَّنُ امتِنانًا، وفي ذلك الامتِنانِ إشعارٌ بحِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ جعَلَ الأرضَ مُلائمةً للمخلوقاتِ الَّتي عليها؛ فإنَّ الَّذي صنَعَ هذا الصُّنعَ لا يُعجِزُه أنْ يخلُقَ الأجسامَ مرَّةً ثانيةً بعدَ بِلاها، والغرضُ مِنَ الامتنانِ هنا تذكيرُهم بفضلِ اللهِ؛ لعلَّهم أنْ يَرْعَوُوا عن المكابَرةِ، ويُقبِلوا على النَّظرِ فيما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تبليغًا عن اللهِ تعالى.

ومناسَبةُ ابتداءِ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بخلْقِ الأرضِ: أنَّ البعثَ هو إخراجُ أهلِ الحشرِ مِن الأرضِ؛ فكانتِ الأرضُ أسبَقَ شَيءٍ إلى ذهنِ السَّامعِ عِندَ الخَوضِ في أمرِ البعثِ، أي: بعثِ أهلِ القبورِ.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ﴿7﴾

(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أي: وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ، فلا تَضطَرِبُ بأَهْلِها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل: 15].

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ﴿8﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا ذكَّر بما في الظَّرْفِ -الَّذي هو فَرْشُهم- مِنَ الدَّلالةِ على تمامِ القُدْرةِ؛ أتْبَعَه التَّذكيرَ بما في المظروفِ، وهو أنفُسُهم؛ لتَجتَمِعَ آياتُ الأنفُسِ والآفاقِ، فيَتبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، فقال:

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) أي: وخَلَقْناكم ذُكُورا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، ويَخْرُجَ النَّسْلُ منكم. موسوعة التفسير

قال السعدي: ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المنكح.

ما الفرق بين نخلق ونجعل:

■نجعل إشارة إلى النعم.

■نخلق إشارة لأدلة البعث، القادر على الخلق قادر على البعث.

قال ابن عاشور: إيماءٌ إلى ما في ذلك الخلْقِ مِن حِكمةِ إيجادِ قوَّةِ التَّناسُلِ مِن اقترانِ الذَّكَرِ بالأُنثى، وهو مَناطُ الإيماءِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ إعادةِ الأجسادِ؛ فإنَّ القادرَ على إيجادِ هذا التَّكوينِ العجيبِ ابتِداءً بقوَّةِ التَّناسُلِ، قادرٌ على إيجادِ مِثلِه بمِثلِ تلك الدِّقَّةِ أو أدَقَّ.

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الروم: 21].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات: 49].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿9﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: فقد انتَقَلَ مِن الاستِدلالِ بخَلْقِ النَّاسِ إلى الاستِدلالِ بأحوالِهم، وخَصَّ منها الحالةَ الَّتي هي أقوى أحوالِهم المعروفةِ شبَهًا بالموتِ الَّذي يَعقُبُه البعثُ، وهي حالةٌ متكرِّرةٌ لا يَخْلُونَ مِن الشُّعورِ بما فيها مِن العِبرةِ؛ لأنَّ تدبيرَ نظامِ النَّومِ وما يَطرَأُ عليه مِن اليقظةِ أشبَهُ حالٍ بحالِ الموتِ وما يعقُبُه مِن البعثِ.

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أي: وجَعَلْنا نَومَكم قاطِعًا لحركتِكم، فتَحصُلُ به راحتُكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم. موسوعة التفسير

قال السعدي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

قال الطبري: وجعلنا نومكم لكم راحة ودَعة، تهدءون به وتسكنون، كأنكم أموات لا تشعرون، وأنتم أحياء لم تفارقكم الأرواح.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا [الفرقان: 47].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿10﴾

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) أي: وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يَتغشَّاكم سَوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يُغَطِّي الثَّوبُ البَدَنَ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: مِن إتمامِ الاستِدلالِ الَّذي قبْلَه وما فيه مِن المِنَّةِ؛ لأنَّ كَونَ اللَّيلِ لِباسًا حالةٌ مهيِّئةٌ لتكيُّفِ النَّومِ، ومُعِينةٌ على هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنَّ اللَّيلَ ظُلمةٌ عارِضةٌ في الجوِّ مِن مُزايَلةِ ضوءِ الشَّمسِ عن جزءٍ مِن كُرةِ الأرضِ، وبتلك الظُّلمةِ تَحتجِبُ المرئيَّاتُ عن الأبصارِ، فيَعسُرُ المشيُ والعملُ والشُّغلُ، ويَنحَطُّ النَّشاطُ، فتَتهيَّأُ الأعصابُ للخمولِ، ثمَّ يَغْشاها النَّومُ، فيَحصُلُ السُّباتُ بهذه المقدِّماتِ العجيبةِ، فلا جَرَمَ كان نظامُ اللَّيلِ آيةً على انفرادِ اللهِ تعالى بالخَلْقِ وبديعِ تقديرِه، وكان دليلًا على أنَّ إعادةَ الأجسامِ بعدَ الفناءِ غيرُ متعذِّرةٍ عليه تعالى، فلو تأمَّلَ المنكِرون فيها؛ لَعَلِموا أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ، فَلَمَا كذَّبوا خبَرَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به. وفي ذلك امتنانٌ عليهم بهذا النِّظامِ الَّذي فيه اللُّطفُ بهم، وراحةُ حياتِهم، لو قدَروهُ حقَّ قَدْرِه لَشَكَروا وما أَشرَكوا، فكان تذكُّرُ حالةِ اللَّيلِ سريعَ الخُطورِ بالأذهانِ عِندَ ذِكرِ حالةِ النَّومِ، فكان ذِكرُ النَّومِ مُناسَبةً للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ بحالةِ اللَّيلِ على حسَبِ أفهامِ السَّامِعينَ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا [الفرقان: 47]

وقال عزَّ وجلَّ: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [الليل: 1].

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ﴿11﴾

(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) أي: وجعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا يَطلُبُ فيه النَّاسُ أرزاقَهم، ويَسعَونَ في مَصالِحِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: النَّهارُ: الزَّمانُ الَّذي يكونُ فيه ضَوءُ الشَّمسِ منتشرًا على جزءٍ كبيرٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، وفيه عِبرةٌ بدِقَّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذ جُعِل نِظامانِ مختلِفانِ مَنشؤُهما سُطوعُ نورِ الشَّمسِ واحتِجابُه فوقَ الأرضِ، وهما نِعمتانِ للبَشرِ مختلِفتانِ في الأسبابِ والآثارِ؛ فنِعمةُ اللَّيلِ راجعةٌ إلى الرَّاحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النَّهارِ راجعةٌ إلى العملِ والسَّعيِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَعقُبُ اللَّيلَ، فيكونُ الإنسانُ قد استجَدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه، ويتمكَّنُ مِن مختلِفِ الأعمالِ؛ بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرقِ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا [الفرقان: 47].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ﴿12﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: ناسَبَ بعدَ ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ -وهما مِن مَظاهِرِ الأُفقِ المسمَّى سماءً- أنْ يُتْبَعَ ذلك وما سبَقَه مِن خلْقِ العالَمِ السُّفليِّ بذِكرِ خلْقِ العوالِمِ العُلويَّةِ

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) أي: وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ والإحكامِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس.

كما قال الله تبارك وتعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [النازعات: 27-28].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ﴿13﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: وأيضًا ذِكرُ السَّمَواتِ يُناسِبُه ذِكرُ أعظَمِ ما يُشاهِدُه النَّاسُ في فَضائِها، وذلك الشَّمسُ؛ ففي ذلك مع العِبرةِ بخَلْقِها عِبرةٌ في كَونِها على تلك الصِّفةِ، ومِنَّةٌ على النَّاسِ باستفادتِهم مِن نُورِها فوائِدَ جَمَّةً

(وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) أي: وجعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ والإضاءةِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: نبه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: في قَولِه تعالى: وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا أنَّه سُبحانَه سمَّى الشَّمْسَ سِراجًا وضِياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينًا؛ فلهذا قال: جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا [يونس: 5].

كما قال تعالى: وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا [نوح: 16].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ ﴿14﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: ومِن ذلك أنَّها استِدلالٌ بحالةٍ أُخرى مِن الأحوالِ الَّتي أَودَعَها اللهُ تعالى في نِظامِ الموجوداتِ، وجعَلَها مَنشأً شبيهًا بحياةٍ بعدَ شبيهٍ بموتٍ أو اقترابٍ منه، ومَنشأَ تَخلُّقِ موجوداتٍ مِن ذرَّاتٍ دقيقةٍ، وتلك حالةُ إنزالِ ماءِ المطرِ مِن الأَسْحِبةِ على الأرضِ، فتُنبِتُ الأرضُ به سَنابلَ حَبٍّ وشجرًا وكَلأً، وتلك كلُّها فيها حياةٌ قريبةٌ مِن حياةِ الإنسانِ والحيوانِ، وهي حياةُ النَّماءِ، فيكونُ ذلك دليلًا للنَّاسِ على تصَوُّرِ حالةِ البعثِ بعدَ الموتِ بدليلٍ مِن التَّقريبِ الدَّالِّ على إمكانِه؛ حتَّى تَضمحِلَّ مِن نفوسِ المكابِرينَ شُبَهُ إحالةِ البعثِ .

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ المُثْقَلِ بالمياهِ ماءَ المطَرِ المنصَبَّ على الأرضِ بتَتابُعٍ وكَثْرةٍ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا [عبس: 25].

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ﴿15﴾

(لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا) أي: لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ -كالقَمْحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأُرُزِّ- وأنواعَ النَّباتاتِ. موسوعة التفسير

■حَبًّا أي: مِمَّا يأكُلُه النَّاسُ كالقمحِ والشَّعيرِ وما يُقتاتُ، ■وَنَبَاتًا أي: ما يكونُ قُوتًا للأنعامِ والدَّوابِّ كالحشيشِ والعشبِ.

■الإنبات يذكر في سياق النعم.

■الإخراج يذكر في سياق الدلالة على البعث.

وقال سُبحانَه: فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [عبس: 27 - 32].

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ﴿16﴾

(وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) أي: ونُخرِجَ بالمطَرِ بَساتينَ وحَدائِقَ أشجارُها كثيرةٌ مُجتَمِعةٌ، مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ؛ لكَثْرتِها، وتَقارُبِها، وتداخُلِ أغصانِها. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: بُيِّنتْ حِكمةُ إنزالِ المطرِ مِن السَّحابِ بأنَّ اللهَ جعَلَه لإنباتِ النَّباتِ مِن الأرضِ؛ جمعًا بيْنَ الامتِنانِ والإيماءِ إلى دليلِ تقريبِ البعثِ؛ لِيحصُلَ إقرارُهم بالبعثِ، وشُكرُ الصَّانعِ.

قال الشنقيطي -رحمه الله- والذي يظهر - والله تعالى أعلم -: أن أظهرها دليلا هو يوم القيامة والبعث ; لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها، وعقبها بالنص على يوم الفصل صراحة، أما براهين البعث فهي معلومة أربعة: خلق الأرض والسماوات، وإحياء الأرض بالنبات، ونشأة الإنسان من العدم، وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاينتها. وكلها موجودة هنا.

❶أما خلق الأرض والسماوات، فنبه عليه بقوله: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) وقوله :(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)، فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى.

كما قال: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [غافر: 57].

❷وأما إحياء الأرض بالنبات ففي قوله تعالى :(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)

كما قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت:39]

❸وأما نشأة الإنسان من العدم، ففي قوله تعالى :(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)، أي: أصنافا، كما قال تعالى :(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:79].

❹وأما إحياء الموتى في الدنيا بالفعل، ففي قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) والسبات: الانقطاع عن الحركة. وقيل: هو الموت، فهو ميتة صغرى، وقد سماه الله وفاة، قال سبحانه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الزمر:42] وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) [الانعام:60]

⇦وهذا كقتيل بني إسرائيل وطيور إبراهيم، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة.

قال السعدي: فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عددها، كيف [تكفرون به و] تكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟"